

# فَلَكَانَتِ الْعَرَبِيَّةُ لِغَةُ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ؟

## الأستاذ عاصي المفليبي ، مجمع لجؤت الإسلامية "القاهرة"

صفحات مدة من هذا السفر المظيم (١) ، نوجز تلخيصه وتحديد موضوعاته فيما ياتي :

١ - تحدث عن الشخصيات الظاهرة التي نزلت مكة وقت كان ليس بها أحد ولا ماء ، وهم : الخليل إبراهيم ، وهاجر وبنتها الرضيع اسماعيل سلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

٢ - نبع زرم لمهاجر ولدتها .

٣ - قدموا بطن مريم جرهمي واستئذانه هاجر في السماح له بالإقامة في مكة راضبين شرطها « الا حق لهم في الماء » ، وأستقدموا اهلا لهم ، وقد شب اسماعيل عليه السلام بينهم ، وتزوج منهم مريمين .

٤ - زيارات ثلاث للخليل إلى مكة لوديعته - مدا الأولى التي قدم فيها باهله إليها ، وكان باخرها تلك الزوررة التي بني فيها البيت مع ولده - عليهما الصلاة والسلام - وأمر فاذن في الناس بالحج .

وهذا الحديث الشريف يعطي حقائق موضوعية هامة توضح بعض ما غاب عن التاريخ في منهجه الحديث :

أولها : بيانه الواضح من مبدأ تاريخ العمران في مكة ، والذين يعنون بتجزيل المصر التاريخي للأمم القديمة ليسوا أمامهم وليقنة أدق من هذا الحديث لبيان بهذه العمران بمكة وارتباط الناس فيها وسكناتهم بها ، فإذا كان الخليل - سلوات الله عليه - قد هاش

لنة خليل الرحمن إبراهيم - ملبه الصلاة والسلام - شغلت الباحثين من علماء الأدباء في المصر الحديث ، وبخاصة بعض الذين يهمهم أن ينحرقوا ببحوثهم في الجاه معين مسبوق بتحطيمه ينسليخ بسيبه العرب من صلتهم بالخليل ، على نبنا وملبه انفل الصلاة والسلام .

وإذكر أن الاستاذ مباس محمود العقاد - رحمه الله - قد وضع كتابه : « أبو الانبياء : الخليل إبراهيم » و « الثقات العربية أسبق من ثقافة اليونان والعربين » وتصدى فيما لهذه القضية واستطاع أن يرد إلى نصر النحرفين سهامهم . وتابع - رحمة الله عليه - منهج « تقصي العقائق » في بحثه الذي استمل مدة مناهج تلقت تالجها في النهاية منذ حوالق مشيرة ثبت صلة إبراهيم الخليل الوبيقة بالعروبة في وقت مبكر يقع بين القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد .

ونحن نقتصر هنا - مستعينين بالله - على منهج « الحديث النبوى الصحيح » في الكشف عن لغة خليل الرحمن ، فنان السنة المطهرة قد استقام بها كثير من حقائق التاريخ والكون حين تعرض لها رسولنا الكريم المصطفى صلى الله عليه وسلم .

وقد ساق الإمام البخاري رضي الله عنه في صحبيه حدثا ، رواه بسنده من ابن مباس رضي الله عنهما ، أبان عن أمر الخليل بمكة وأماكنه فيه حتى ليكاد يكون الحديث الوحيد الذي استوفى

(١) صحيح البخاري ١٧٢/٤ مطابع الشعب بالقاهرة ١٣٧٨ هـ

خليل الرحمن عليه وعلى نبينا افضل الصلاة والسلام ؟ وكلناهما كانتا بعد زواج اسماعيل صلى الله عليه وسلم . واسماعيل تزوج مرتين من قبيلة جرم العربية ، قال :

« فجاء ابراهيم بعد ما تزوج اسماعيل يطالع بركته ، فلم يجد اسماعيل ، فسأل امرأته عنه ، فقالت : خرج بيتنى لنا ، ثم سالها عن عيشهم وهيئتهم عليه ، قال : فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ، وقولي له : يغير عتبة بابه ، فلما جاء اسماعيل كانه آنس شيئاً ، فقال : هل جاءكم من احد ؟ قالت : نعم ، جاءنا شيخ كلها وكذا فسألتها عنك ، فأخبرته ، وسائلني : كيف ميشنا ؟ فأخبرته : أنا في جمد وشدة ، قال : فعل أو مراكب بشيء ؟ قالت : نعم ، أمرني أن أقرأ عليك السلام ، ويقول : غير عتبة يابك ، قال : ذاك أبي ، وقد أمرني أن أفارقك .. حتى باهلك ، فطلقتها »

هذه كانت الزيارة الثانية ، ويمكن ان يضع لها القاريء تقدير الوقت الذي استغرقه ، وهذه هي الثالثة .. قال :

وتزوج منها ( يعني من جرم ) تزوج منها اولاً اخري ، ثلثت هنتم ابراهيم ما شاء الله ، ثم اتاهم بعد ، فلم يجده ، فدخل على امرأته فسألها عنه ، فقالت : خرج بيتنى لنا ، قال : كيف انتم ؟ وسألها عن ميشهم وهيئتهم ، فقالت : نحن يخبرن وسعة ، واثنت على الله ، فقال : ما طعامكم ؟ قالت : اللحم ، قال : فما شرابكم ؟ قالت الماء ، قال : اللهم باورك لهم في اللحم والماء

قال النبي صلى الله عليه وسلم : ولم يكن لهم يومئذ حب ، ولو كان لهم دعا لهم فيه ، قال : فهم لا يخلو عليةما احد بغير مكة الا لم يوافقه ، قال : فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومربيه يثبت عتبة يابه ، ثلثا جاء اسماعيل قال : هل الاك من احد ؟ قالت : نعم ، اثنان شيخ حسن البيضة ، واثنت عليه ، فسائلني هناك فأخبرته ، فسألني : كيف ميشنا فأخبرته أنا بغير ، قال : فأوصاك بشيء ؟ قالت : نعم هو يقرأ عليك السلام ، ويأمرك ان تثبت عتبة يابك ، قال : ذاك أبي وانت العتبة ، أمرني أن امسلك ..

ونعيد لفت نظر القاريء الى النظر في قدر هذه الزيارة الزمني . ثم نلاحظ ان الخليل في كلتسى

بين القرنين السالفين من قبل الميلاد ، كان ذلك يعني ان هذه الفترة مبدأ دخول مكة مصراها التاريخي .

ثانيها : يوضع هذا الحديث الشريف في جلاء نادر « حلقة مفقودة » لدى المؤرخين الذين توصلوا الى ممالك الاسماعيليين في شمال الجزيرة مثل : تيماء ، ودومة الجندي وغيرها ، دون ان يصلوا - عن طريق منهجم - الى « مهاد » هذه الرؤوس الشريفة من ابناء اسماعيل ، اعني الصدر الاول من ابنائه لا احفاده ومن بعدهم ، فقد ظلت هذه المهد حلقة مفقودة الا في هذا الحديث ، فهو وحده الذي يقدمها غير ضوء شديد ينير من حولها كل السبل ويقطع بان الاسماعيليين صعدوا من الجنوب (مكة) فامتلکوا في الشمال (اعالي الجزيرة) وليس العكس.

ثالثها : لغة خليل الرحمن - على نبينا وعليه افضل الصلاة والسلام ، وهنا يعني ان تتحدث عنها وحدها دون ان تتعرض للغة اسماعيل عليه الصلاة والسلام ، وذلك لأمر واحد ، هو ان اسماعيل نشأ رضيعاً في قبيلة جرم وتلقى العربية منهم ، وفي هذا الحديث الشريف جاء عنه .. « وشب الغلام وتعلم العربية منهم وانفسهم واعجمهم » لذلك تزيد ان تتحدث عن لغة خليل الرحمن وحده ، وهو الذي لم يقطن مكة ولم يجاور جرم الاصوات في الزيارة الثانية والثالثة ، ومدة بناء البيت في الرابعة . امس الاولى فلم يكن بمكة يومئذ احد وربما لم يمكث فيها ساعة من نهار ، وها هو الجزء من الحديث الخاص بها ، قال ابن عباس رضي الله عنهما من « هاجر » - عليهما السلام : ثم جاء بها ابراهيم وبابها اسماعيل - وهي ترضعه - حتى وضعتها عند البيت عند دوحة فوق زمزوم في اهل المسجد ، وليس بمكة يومئذ احد ، وليس بها ماء ، فوضعتها هناك ، ووضع متدهما جرايا فيه تمر ، وستقاء فيه ماء ، ثم قفى ابراهيم ! اين تذهب ثبنته ام اسماعيل ، فقالت : يا ابراهيم ! اين تذهب وتركتنا بهذا الوادي الذي ليس فيه انس ولا شيء ؟ فقالت له ذلك مراراً ، وجعل لا يلتفت اليها ، فقالت له : والله الذي امرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : اذا لا يضيعنا . ثم رجمت .

ولا يمكن ان يقال : ان ابراهيم مكث شيئاً بالمكان ، انه ما ان وضعتها حتى اطلق راجماً ، وبالتالي ما كان فيها من احد غير اهله .

ولما كانت الزياراتان الثانية والثالثة كلامها اهمية في الموضوع نسوقهما لنعرف منها : ما لغة

وحتى يتم لقاء «علمي» بين الحديث الشريف و «التاريخ» في منهجه الحديث ينبغي النظر في المجرات العديدة التي تمت في المعرق التاريخي لجنوب الجزيرة ، اهني منذ اربعة الاف سنة من قبل الميلاد ، فقد توالى هجرات منه الى الشمال في خطين . وامتلكت بعض هذه القبائل الشمال ودان لها ، وفي منتصف هذه الالاف الاربعة ظهر الخليط عليه السلام كعربي اصيل ، لانه منها ، ولأنه يستحبيل ايضاً ان يدعو الى دين الله في قلب الجزيرة ، ويؤذن للناس بالحج - وفي مقدمتهم جرهم القاطنة حول البيت - بلسان غير عربي ، قال تعالى: «وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم (ابراهيم ٤) والحج شريعة الخليط عليه السلام .

ولستا نقول : انه عليه السلام تحدث بالعربية التي هي هريتنا - اهني لغة القرءان الكريم التي بها انزل - لكنها هربية زمانه بفصاحتها ، وما من شك انها كانت وثيقة الصلة : اصولاً وفروماً بعربة القرءان الكريم .

ولقد اوحى الى رسولنا المصطفى صلى الله عليه وسلم ببعض دعائه في تمويدة كان يسوز بها ولديه : اسماعيل واسحاق عليهما الصلاة والسلام ، فنوزد بها المصطفى - صلى الله عليه وسلم ولديه : الحسن والحسين ، فقال : اميلاً كما بكلمات الله الناتمة ، من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة »  
قد لا تكون مين اللفاظ ، لكنها العربية ، وليس الفرق بينهما الا ان الاولى هربية الخليط عليه الصلاة والسلام ، والاخيره هربية المصطفى خاتم الرسلين صلى الله عليه وسلم .

الزياراتين اعقبهما بالرحيل فلم يمكث بمكة مقدار شهر او اكثر حتى يقول : انه اخذ اللسان العربي ابان اقامته .

وإذا كان من الحقائق المأمة التي يقدمها هذا الحديث الشريف ان زوجتي اسماعيل : الاولى والثانية من جرهم - الذين على ذلك حيث يقول من الاولى : « فلما ادرك زوجوه امرأة منهم » ومن الثانية « وتزوج منهم اخرى » . - فهذا يعني ان كل الكنتين هریتان خالستان ، ومن الصفت ان يدمي مدع انهم تعلمتا لغة اخرى في العربية .

كذلك ثبت لنا ان خليل الرحمن - على نسبها وعليه افضل الصلاة والسلام - لم يمكث بمكة قدر ما يعلمها العربية ، وكان يخاطب كناته ، وقد انفرد بكل منهما - دون ثالث يمكن ادعاة انه ترجم بين لسانيهما .

وهذا امر يعني - دون تردد - ان الخليط - صلوات الله وسلامه عليه - كان ذا لسان هری بيمن فيما كانت «المخاطبة» بينهما - في كل مرة - كلمة عابرة تزددها اشارة ، ولكنها حوار دار بين اخذ ورد اثنين بحكمه على كل منهما ، فواحدة كانت شلوم بيت زوجها والاخري كانت حسنة وخبره

وإذا كان الخليط - عليه السلام - ذا لسان هری ولم يكن من اهل مكة ، ولا كان من اهل الجنوب (اليمين وما حولها) وكان من الشمال ، فهذا يعني ان العربية كانت مسيطرة - كلغة حياة ومعاش - في هذا الشمال الذي كان فيه الخليط وهنا تلتقي بالاستاذ العقاد - رحمة الله عليه - الذي يعطي بحثه نزود العربية القديمة في شمال الجزيرة حتى تخطت العراق وما كان الى غربه وشماله .